العام ١٩٢١ في بلاد شرق الاردن . والقصة معروفة تاريخيا ولكن لا بأس من ترددها . فبعد انتهاء الحرب العالمية الاولى في العام ١٩١٨ اصبحت منطقة شرق الاردن حسب التقسيمات التي اوجدها اللنبي (ادارة مناطق العدو المحتلة) تابعة الى ادارة فيصل في دمشق ولكن بعد سقوط مملكة فيصل في يتموز ١٩٢٠ ودخول الفرنسيين دمشق في اعقاب معركة ميسلون ، شكل الضباط الانجليز المعتمدون في شرق الاردن عدة حكومات — « دول » وصلت في احدى المرات الى ثماني . فكان في منطقة عجلون وحدها اربع من هذه « الدول » الفها الضابط الانجليزي سمرست ، مراكزها في اربد وسوف والمزار والكورة . اما في البلقاء فقد بقي متصرفها الذي عينته حكومة فيصل حاكما عليها بالاسم فقط، اذ ان سلطته الفعلية لم تتعد عمان التي شكلت بدورها حكومة . وفي الكرك وبتأثير من الضابط الانجليزي الك كيركبرايد ، تشكلت « دولة مؤاب العربية » وقد جرى اختلاف بين « دولة عمان » و « دولة مؤاب » على الحدود فيما بينهما استغفل الضابطان الانجليزيان المعتمدان في كل منهما معلوماتهما التوراتية لتخطيط الحدود والتوفيق فيما بين « الدولتين » . أما في الطفيلة فكان قد تشكل قبل ذلك مجلس حكومة كذلك ، بقائمقام و «وزراء» .

لم يكن هناك اذن كيان اردني قبل ١٩٢١ . وفي تلك السنة حدث تطور مهم في المنطقة اذ عقد مؤتمر القاهرة الذي افتتح رسميا في ١٢ اذار ١٩٢١ وكان الحاضرون اربعين خبيرا في السياسة البريطانية في الشرق الاوسط . وقد ترأس المؤتمر ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطاني الذي انتقلت اليه في مطلع العام نفسه مسؤولية المنطقة بعد ان كانت هذه المسؤولية من اختصاصات وزير الخارجية البريطاني . وقد بحث مؤتمر القاهرة في مسألة شرق الأردن وعلاقتها بفلسطين ومسألة قدوم عبدالله الى شرق الاردن . ولم يتخذ في المؤتمر قرار حاسم وملزم بالنسبة لهاتين المسألتين ، وان كان هذا القرار قد اتخذ في اجتماع القدس الذي عقده تشرشل مع عبدالله بعد ايام قليلة من مؤتمر القاهرة . ففي المحادثات التي تمت في الايام ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ من اذار ١٩٢١ قال تشرشل عن شرق الاردن « ان المنطقة اصغر من ان تستطيع الوقوف وحدها . لذلك يجب ان تبقى مع فلسطين اقتصاديا وجغرافيا وهو يقترح اعتبارها مقاطعة عربية يديرها حاكم عربي يرجع في مسؤولياته الى المندوب السامي على فلسطين ... وقال تشرشل انه يود ان يوضح بمزيد من التفصيل ماذا سيكون مركز الحاكم العربي ومسؤولياته ... من الطبيعي ان تتوقع الحكومة البريطانية من ذلك الحاكم ضمانا بان يتفادى القيام بنشاطات معادية لليهود في شرقي الاردن والا يسمح لقيام نشاطات من هذا النوع . ومن المفترض في ذلك الحاكم ان يتقبل السياسة البريطانية في فلسطين الى الغرب من نهر الاردن ... ومن المعتقد ان السيطرة يجب ان تكون حقيقية ، بقصد تأمين مصالح فلسطين وللحياولة دون ان تصبح المنطقة مصدرا للمتاعب في وجه الفرنسيين ، ولتمكين الدولة المنتدبة من ان تفي بالتزاماتها الدولية ... وسيكون من المفيد ايضا فتح طريق جوي بين عمان وبغداد من اجل التقريب بين فلسطين والعراق ... واقترح تشرشل على الامير ان يبقى هو نفسه في شرقي الأردن مدة ستة اشهر بقصد تمهيد الامور لتعيين حاكم عربي تحت اشراف المندوب السامي في نهاية تلك المدة بموافقته [اي الامير] ... وقال تشرشل انه ابدى استعداده لان يقدم للامير ذلك القدر من التعضيد بالمال والقوى العسكرية في حدود الحاجات الضرورية ... ومقابل هذا التعضيد فانه سوف يطلب من الامير ان يضمن عدم قيام هياج ضد الفرنسيين وضد الصهيونية في البلاد ... وسيطلب منه ايضا ان يمنح كل مساعدة من اجل شق الطريق الصحراوي شرقا الى العراق ... وقد اجاب الامير عبدالله انه بعد النظر في مقترحات تشرشل قرر قبولها » (٤)

لقد تعمدنا ايراد هذا النص المطول من محادثات القدس لأظهار ان القصد من تشكيل الامارة كان واضحا لا لبس فيه ولا ابهام ، وفي الوقت نفسه كي اجيب على التساؤل الاستنكاري الذي طرحه الاخ الناقد بقوله « كيف يمكن لتشرشل وعبدالله ان ينشئا بجرة قلم كيانا يعيش ويقوم بالدور الذي اسنده اليه الباحث اعتسافا ؟ » ففي الحقيقة يظهر النص ان الكيان انشيء فعلا بـ « جرة قلم » ولكن في معنى واحد هو ان جرة القلم تلك ارست الأسس التي يستند عليها البنيان خلال السنوات اللاحقة من خلال اقامة المؤسسات السلطوية والادوات المعبرة عنه . هذا من جانب . ومن جانب اخر انا لم اسند الى الكيان هذا الدور « اعتسافا » وانما تشرشل هو الذي فعل ذلك .